

## الطائر المعدني

خرجنا كالمعتاد، كل صباح، نتقافز كالعصافير، نطارد الفراشات، وصغار الجراد، والشمس ترسل أشعتها الذهبية إيداناً بالشروق، وبداية يوم جديد، حملنا أشراننا المصنوعة من شعيرات منزوعة من أذيال الخيول والحمير .. كنا نتقن صنعها ونتقن أكثر اصطياد العصافير بها .. دلفنا إلى الدغل المتاخم للقرية، توغلنا إلى داخله أملين بصيد وفير .. ولم نكن نعلم أنه آخر عهدنا بالقرية وبأهل القرية.

سرنا في خط مستقيم .. يتقدمنا "خليل" فهو أكبرنا سنأ، وأكثرنا خبرة بمجاهل الدغل الكثيف، ولأنه كان يحمل فأساً يبتز بها الأغصان المتشابكة التي كانت تعترض طريقنا. خلفه بخطوات كان يسير "إسحاق" أصغرنا سنأ - صديقي الحميم - إسحاق الأعرج يحمل شركه بيده اليسري، وباليد الأخرى كان يقبض على نايه الأثير .. وفي المؤخرة كنت أسير، أعلّق على عرج "إسحاق" فيتوقف غاضباً - يشتمني، وأحياناً يقذف تجاهي بغصن بتره "خليل" .. نضحك .. نمرح - سعداء كنا بطفولتنا.

بعد مسير دام زهاء نصف الساعة، شارفنا نهاية الدغل من ناحيته الغربية .. انسللنا منه الواحد تلو الآخر .. استقبلنا وادٍ فسيح، بديع المنظر، جلس "إسحاق" على الرمل، رمى شركه بجانبه، وضع الناي بين شفثيه وبدأ يعزف لحناً شجياً مؤثراً.

أعداد هائلة من العصافير الملونة تتقافز حولنا، تترك على الرمل حيناً، وعلى الأغصان أحياناً .. و"إسحاق" على نايه يعزف.

أعددت مصيدي بمهارة .. حملت غصناً وغرخته في الرمل، ثم وضعت الشرك تحت ظله بعد أن نثرت قليلاً من الذرة عليه .. لم تمض لحظات حتى ركت العصافير على شركي .. وفجأة سمعنا ضوضاء وصخب .. ترتفع وتيرته كل لحظة .. لم نتبين في البدء ماهية تلك الأصوات، لكنها كانت آتية من جهة القرية .. ثم تلا ذلك صراخ وعويل، صياح وبكاء... "إسحاق" رمى نايه وتوقف عن العزف، "خليل" كان يجهز شركه، فقدفه جانباً وأرهف السمع .. تعالى الصراخ والعويل والضوضاء .. إندفعنا إلى داخل الدغل عائدين إلى القرية .. تقدمنا "إسحاق" رغم عرجه .. الأغصان والأشواك تمزق أجسامنا الصغيرة .. وحين اقتربنا من تخوم القرية كان الدخان الكثيف يغطي الأفق ويججب الرؤيا .. الأصوات بدأت تتلاشي رويداً، رويداً حتى خمدت.

كنا منهكين .. مدعورين، ومن بين جذوع الشجر المتشابكة شاهدنا أناس ملثمين .. يحملون بنادق وفؤوس، رأيناهم وسط سحب الدخان كأشباح يتحركون في كل الاتجاهات، اختبأت خلف جذع كبير و"إسحاق" يمسك بيدي. "خليل" مرق كالسهم وهو يصيح، ينادي: أمي .. أبي .... ثم رأينا يسقط مشجوج الرأس على بعد أمتار منا - أردت أن أصرخ فخرج صوتي كالفحيح - بللت ملابسي. "إسحاق" وضع إبهامه داخل فمه واستلقى يبخلق في اللاشيء.

الدخان بدأ يتلاشي، رتل الأشباح غادر المكان، ومازلت بمكاني خلف جذع الشجرة و"إسحاق" مازال يمص إصبعه ويبخلق في اللاشيء.

لا أدري كيف حملتني قدمي وخرجت من الغابة الكثيفة؟ مررت بجثة رفيقنا "خليل" - منظر رأسه المشجوج حرك السوائل في بطني، دفعها إلى حلقي، جثوت قربه وتقبأت.

نهضت متناقلاً، سرت في اتجاه منزلنا - حيث كان منزلنا - أنعثر في الأجساد المتفحمة، ورائحة الشواء والقصب تزكم أنفي .. وقفت حيث اعتقدت أنه مكان منزلنا .. ثمة جثث متناثرة، اقتربت من أحد الأجسام المتفحمة .. حدسي قادني إليه .. تمنعت في بقايا الجسد المحروق - أمي - عرفتها بخلخالها الفضي على رجلها اليمنى، اكتسي الخلخال بالسواد .. جثوت قريباً منها .. تمددت بجانبها أبكي، والشمس تتوسط كبد السماء حارقة كأنها تواطأت عليّ.... ثم غفوت.

أيقظني كلب ضال كان يحوم في المكان، لامس قدمي فانفضت مدعوراً .. تذكرت صديقي الحميم "إسحاق"، وقفت بصعوبة، مجرراً أقدامي اتجهت صوب الدغل .. وجدته - صديقي - لم يزل يمص إبهامه وينظر إلى فراغ، إلى لاشيء.

إسحاق رفيقي الحميم .. أفق .. أرجوك تكلم .. لا تحرق هكذا .. كلمني .. فليس لي سواك وليس لك سواي .. خذ هذا الناي. إعزف عليه لحنك الشجي .. أفق يا صديقي الحميم.

لكنه أبي إلا أن يظل في صدمته الأبدية .. الليل موحش والذئاب ترعد الفرائض .. تذكرت جدي وحكاياته في الليالي المقمرة، أخبرني يوماً - وكنت مستلقياً على حجره - أنه وأصحابه ذهبوا إلى الصيد، ولما جنّ الليل أشعلوا النار إلقاء للذئاب والوحوش. تذكرته حين آذنت الشمس بالمغيب، بحثت بين أكوام الرماد عن جمرة خافية.. ولما أنسدل

ستار الليل كنت أضع إسحاق على حجري كطفل رضيع، والنار متأججة أمامنا تدفئنا وتطرد عنا الوحوش والذئاب.  
يومان مرا على هذا المنوال، وصديقي لم يزل يمص إبهامه، مستلقياً ينظر إلى فراغ .. إلى لاشيء. كنت أقتات من  
ثمار الشجر والعصافير المشوية .. هو لم يذق طعاماً طيلة هذه المدة.

في صبيحة اليوم الثالث، وبينما كنت أهش الصقور والجوارح عن جثة صديقنا "خليل" تناهى إلى سمعي أزيز، هدير  
مرعب، مصدره السماء، عدوت صوب الغابة مذعوراً .. احتमित بجذع الشجرة ورفيقي مازال في غيبوبته .. اقترب  
الصوت كثيراً، هديره يصم الأذان، ثم هبط قريباً منّا جسم معدني يشبه طائر ضخم، له جناحان أحدهما فوق ظهره  
والآخر صغير على مؤخرته .. طائر أسطوري لم أره من قبل .. صوته مخيف، حط قريباً منا .. ثم بدأ هديره يخفت ..  
ويخفت إلى أن صمت تماماً.

لدهشتي العظمي، أنفتح جزء من الطائر المعدني، أطل منه رجل يرتدي إزاراً أيضاً بلا أكمام، ثم تلاه آخر  
وآخرون .. سحناهم متباينة، أحدهم كان يحمل شيئاً على كتفه ولما هبط واستوى على الأرض حمل الشيء بين يديه،  
رفعه بمحاذاة عينيه .. ثم خرج ضوء باهر غطى على ضوء الشمس المتكسر على الأجسام المتفحمة. احتضنت رفيقي  
واستكنت ارتعد خوفاً.

بدأوا يجوبون المكان، يتحدثون، يكتبون على دفاتر كانوا يحملونها .. اقترب أحدهم من مكان النار التي لم يزل  
دخانها يتصاعد كخيوط رقيقة، دنا أكثر، نادى على رفاقه .. تجمعوا حول مكان النار .. تلفتوا حولهم .. ثم بجذر  
بدأوا يتوغلون داخل الغابة.

وجدوني والذعر كاد أن يميتني، محتضناً رفيقي الذي يمتص إبهامه وينظر إلى اللاشيء، ربت أحدهم على رأسي بحنو  
أزال بعضاً من خوفي، ثم برفق سحبني من حضن رفيقي .. ثم سألني عن اسمي .. لم أجبه .. انفجرت باكياً .. بكيت  
كثيراً.. كثيراً جداً.

قبل أن نُحمل إلى داخل الطائر المعدني كان المكان قد ازدحم بالمخلوقات المعدنية السائرة على الارض، هياكل من  
معدن تسير على أربعة أرجل، مدورة، سوداء اللون. تحمل على ظهرها رجالاً يرتدون زياً موحداً - لا يشبه أزياء الذين  
خرجوا من بطن الطائر المعدني الضخم - فهؤلاء ملابسهم لا تتشابه لكنهم جميعهم كانوا يرتدون إزاراً أبيض اللون بلا  
أكمام مرسوم على ظهره علامات حمراء.

في جوف الطائر المعدني نمت. رغم الضجيج والضوضاء نمت نوماً عميقاً، ولما صحوت وجدتني داخل غرفة بيضاء تهتز مع الريح، وفي الاتجاه المقابل كان يرقد صديقي الحميم "إسحاق" حوله أشخاص يربطون شيئاً يشبه البالون الصغير أعلى الخيمة، ويبتون آخره المتدلي في يد رفيقي - يده الطليقة - فالأخرى لم يزل أبحامها داخل فمه، ولم تزل عيناه تنظران إلى الفراغ .. إلى اللاشيء.

غلبني الفضول .. فانسلفت خارجاً. الفضاء أبيض .. على مد البصر، بياض ثم بياض .. خيام هرمية الشكل تشبه "القطاطي" وأخري كالتّي خرجت منها - مربعة - والشارة الحمراء مرسومة على كل الخيام. نساء وأطفال، صبايا وشيوخ، يخرجون أو يدخلون إلى داخل الخيام .. سرت بينهم .. أحدق فيهم .. في وجوه النساء النحيلات .. علي أبصر وجه أمي .. أو وجهاً يشبه وجه أمي.